ملامح من شخصية العلامة
عبد السلام جبران المسفيوي

للأستاذ محمد عز الدين المعيار الإدريسي
رئيس المجلس العلمي بمراكش

* مفتاح شخصيته :

تعددت خصال الأستاذ عبد السلام جبران الحميدة، وصفاته النبيلة، بشكل متناسق متجانس لا نشاز فيه ولا استكراه، مما جعله - بحق - درة لامعة بين أقرانه، وهي خصال وصفات، منها ما هو فطري من صنعة الخلاق البارئ سبحانه، ومنها ما هو مكتسب بحكم شتى العوامل والأسباب، التي هيأها الله له، وساقها إليه، وزاد سبحانه من تفضله عليه، فصبغ حياته وسلوكه بسمات الجمال :

● الجمال بأوسع معانيه وشتى إيحاءاته.

● الجمال بمقاييسه الهندسية، وتناسبها في الجسم والصورة، في الهيئة والسمت، في العبارة ولهجة الإلقاء، وفي الذوق وحسن الاختيار...

● الجمال الذي يتلخص في الفضيلة، التي بدونها يصبح الجمال مزيفا لا قيمة له ولا معنى...

والأستاذ جبران كان إنسانا، بكل ما تحمله هذه الكلمة من مضامين سامية، يحب الخير ويسعى إليه، لا يعرف الحقد إلى قلبه سبيلا، جم التواضع، كثير الحياء، خفيف الظل، عفيف اللسان، سمحا كريماً.

* لقطات من حياته :

أبصر الأستاذ عبد السلام النور عام 1334هـ - 1915م، بقرية آيت مسولت بقبيلة مسفيوة، على مقربة من مدينة أغمات، ذات المجد التليد...

ولا شك أن هذه المنطقة، ألقت بظلالها على شخصية المترجم وأثرت في طبعه وذوقه، بما اشتهرت به من اعتدال طقسها، وعذوبة مائها، وخصوبة أرضها، حتى قال عنها ياقوت في معجمه : «إنها تجمع بين فواكه الصرود والجروم».

وإلى جانب هذا الثراء الطبيعي للمنطقة، كان لها ثراء ثقافي حافل، انعكس بدوره على شخصية جبران، ولا غرو فقد عودتنا هذه الأرض المعطاء إنجاب الأعلام الأفذاذ، من رجالات العلم والفكر والأدب والتصوف والفقه واللغة وغير ذلك... ويكفي أنها كانت مسرحا لآخر فصل من حياة الملك الشاعر المعتمد بن عباد، وأنها أنجبت من الفحول - قديما - أمثال :

● أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن الهواري الأغماتي.

● وأبي عبد الله محمد بن عبد الكريم الهزميري.
● وأخيه أبي زيد عبد الرحمن بن عبد الكريم الهزميري الصوفي الشهير، أحد أبرز أساتذة ابن البناء العددي المراكشي... كما أنجبت - حديثا - أمثال :
● محمد بن عثمان المسفيوي المراكشي (تـ : 1945م) خريج جامعة القاهرة ورئيس جامعة ابن يوسف وصاحب كتاب «الجامعة اليوسفية بمراكش في تسعمائة سنة».
● عبد القادر المسفيوي المراكشي (تـ : 1952م) رئيس جامعة ابن يوسف وأحد الوطنيين البارزين بمراكش.
● وأخيرا الأستاذ عبد السلام جبران... رحم الله الجميع.

*** دراسته وشيوخه :**

هناك في مسقط رأسه بأغمات، نشأ وتربى، وحفظ القرآن الكريم، في كنف والده الطالب العدل السيد علي ابن عبد الله بجبال مسفيوة، ودرس جملة من المتون والأمهات بمدرسة تغنبوشت مما أهله، للتوجه بعد ذلك إلى مدينة مراكش سنة 1354هـ، ليأخذ عن أهلها، ويغترف من حياض جامعتها العامرة - إذ ذاك - جامعة ابن يوسف.

وكان من أبرز شيوخه في هذه المرحلة :
● العلامة السيد محمد بن لحسن الدباغ.
● العلامة السيد محمد بن أبي بكر السرغيني.
● العلامة السيد أحماد أكرام البعقيلي.
● العلامة مولاي أحمد العلمي.
● العلامة السيد المدني بن الحسني.
● العلامة السيد محمد المختار السوسي.
● العلامة السيد عبد الجليل بلقزيز.
● العلامة السيد محمد بلهاشمي المسفيوي.

كان في ابن يوسف كالفراشة يتجول بين حلقات الدروس، أو كالنحلة يمتص الرحيق ويمضي بسرعة إلى حال سبيله، ومن ثم لم يمر سوى وقت قصير، حتى استوعب كل العلوم والفنون الرائجة على ذلك العهد، مع ميول أدبية نماها بنفسه، وأثراها بحسن اختياره، وقوة حافظته، حتى لقبوه بالحريري وببديع الزمان...

وانتهت مرحلة الدراسة بالحصول على شهادة العالمية سنة 1935م.

بين أغمات ومراكش - إذن - عاش أستاذنا الراحل، وبين ظهرانيهما تكونت شخصيته، فسرقت روحه، منهما صفاء الطبيعة وسحرها، وخفة ظل أهلها وجمال نكتهم وسرعة بديهتهم.

*** جبران والتصوف :**

إلى جانب البيئتين الطبيعية والعلمية المذكورتين سابقا، كان هناك عامل آخر أثر في حياة الشيخ، وأخذ باهتمامه، هو جانب التصوف، الذي يعد مدرسة عالية لتربية الأذواق والسلوك، خاصة إذا كان منطلقه سليما وهدفه نبيلا، وقام على الكتاب والسنة، كشأن كثير من أعلام التصوف عندنا بالمغرب.

لقد كان والد الشيخ جبران فقيراً تجانياً، وكان ابنه من بعده على نفس المنوال، لكن أخذه عن شيخ بارز من شيوخ الطريقة، - أعني أبا عبد الله امحمد بن عبد الواحد النظيفي (تـ : 1366هـ) - زاد من تعميق وعيه وتجربته، كما كانت زاويته المعروفة بحي القصور بباب فتوح مجالاً آخر من مجالات نشاط الشيخ جبران وإشعاعه...

*** نشاطه العلمي والمهني :**

ويطوي الزمان من حياة الأستاذ صفحة الأخذ والطلب، ويفتح صفحة العطاء والبذل والعمل، فنجده يبدأ حياته المهنية موظفاً بالأملاك المخزنية مكلفاً بتصحيح الفرائض، ثم يتقدم بعد ذلك لمباراة التدريس بالجامعة اليوسفية، فيحالفه النجاح بتفوق عام 1943م، ويجلس

عقب ذلك للتدريس وتكوين الأجيال، متدرجاً بين جميع أسلاك التعليم، من الابتدائي إلى الثانوي إلى العالي.

ويتحلق حوله الطلاب من كل جانب، لينهلوا من معين علمه وأدبه، فلا ينصرفون من دروسه إلا وقد أشبع نهمهم وأذكى قرائحهم، وراحوا يشيدون بفضله ويلهجون بالثناء على شخصه.

وتهتز البلاد كلها عقب إقدام المستعمر على نفي الملك المقدس جلالة المغفور له محمد الخامس (طيب الله ثراه) وأسرته الكريمة، ويتعرض الأحرار من الوطنيين لمكر المستعمر واستفزازه، فيفصل في هذا الإطار الأستاذ عبد السلام المسفيوي هو وثلة من زملائه من علماء مراكش، عن وظائفهم لأفكارهم التحررية، ولرفضهم بيعة الصنيعة ابن عرفة.

وأمام هذه الوضعية لم يسع الأستاذ إلا أن يتعاطى مهنة العدالة لكسب قوته وقوت أهله، متحديا بذلك سياسة الاستعمار وعملائه، (...) وما كانوا يهدفون إليه من سد منافذ الرزق أمام الأحرار من أبناء هذا الوطن الحر الأبي ليرغموهم - حسب اعتقادهم - على الخضوع والاستسلام، لكن التعلق بالملك الشرعي للبلاد أفسد عليهم كل المؤامرات والمناورات التي خططوا لها.

وانتهت الأزمة بانهزام منطق الاستعمار وعملائه، وعادت المياه إلى مجاريها الطبيعية، وعاد الأحرار من أبناء المغرب إلى مزاولة وظائفهم وسابق نشاطهم في ظل العرش العلوي المجيد وعلى أريكته - إذ ذاك - جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه...

وفي هذه الحقبة أسندت إلى الأستاذ جبران مهمة إدارة الطور الأول من التعليم الأصيل إلى جانب التدريس بالأقسام النهائية من الجامعة اليوسفية.

وعندما أحدثت كلية اللغة العربية على عهد جلالة المغفور له الحسن الثاني (رحمه الله تعالى)، كان المترجم من أوائل أساتذتها المبرزين، وعضوا نشيطا في المجلس العلمي لمنطقة تانسيفت قبل أن يصبح رئيسا له بعد وفاة أستاذنا الكبير الشيخ الرحالي الفاروق (رحمه الله).

ويتشرف الأستاذ جبران بالمشاركة في الدروس الحسنية بين يدي جلالة المغفور له الملك الحسن الثاني (طيب الله ثراه) بحضور نخبة من ألمع علماء الإسلام، فيتألق نجمه ويسجل اسمه في قائمة الخالدين من فرسان حلبة الدروس الحسنية الرمضانية أعلى منبر للثقافة الإسلامية في هذا البلد الأمين وفي سائر بلاد المسلمين.

وبموازاة مع هذا النشاط العلمي الهائل، كانت للأستاذ جبران قبل الاستقلال وبعده دروس اختيارية بمسجد ابن صالح وغيره من المساجد والمدارس الحرة بمراكش، كما كانت له أيضا دروس في الوعظ والدعوة إلى الله بمسجدي ابن يوسف والمواسين خاصة، مع القيام بمهمة الخطابة في هذا الأخير.

*** جبران الخطيب :**

يعتبر الأستاذ عبد السلام جبران المسفيوي أحد أبرز خطباء مدينة مراكش خاصة والمغرب عامة، وهو في ذلك النموذج المثالي للخطيب المالك زمام هذا الفن القولي الأصيل في الأدب العربي الإسلامي، فقد اجتمعت فيه كل المؤهلات التي تجعله كذلك، من امتلاك الأسلوب وإتقان اللغة والتصرف في أوجه القول واختيار الأدلة النقلية والعقلية المناسبة دون غلو في التأويل والقدرة على طرد الملل عن سامعيه بالمقابلة والتمثيل والتنويع ويزين كل ذلك براءة اللسان من العيوب وسداد الرأي وصحة القول وحضور البديهة، وشدة الملاحظة وغزارة الفكر ومراعاة المقام والحال، مع المهارة الفائقة في إثارة العواطف وتحريك النفوس وحسن الأداء وجهارة الصوت وانطلاقه وتدفقه ورباطة الجأش وقوة الشخصية وحسن السمت.

*** جبران الشاعر :**

توفرت للأستاذ الراحل، كل المؤهلات لقرض الشعر، من إتقان الأداة وكثرة المحفوظات، إلى رهافة الحس وسرعة البديهة وخصب الخيال، بل كان شاعراً بطبعه، لكنه فيما يبدو كبت شاعريته أو حجب شعره عن الناس، فلم يقله إلا في مناسبات ضيقة، أشار مؤلف كتاب : **«علماء المغرب المعاصرين»** إلى بعض النماذج منها :

وفتية من رجال العلم والأدب
ودعتهم ودموع العين تنسكب
كيف الفراق لهم والورد يجمعنا
والقلب في فرح والسر ينجذب
فهل لهذي الأيام أوبة للمنى
وللهناء فما للدهر ينقلب

* * *

ظبية الحسن ودعينا برفق
فالحمام يجول بين الضلوع
والفتي نظرة إلينا جميعا
ولتهاطل من بعد سحب الدموع
وانزعي الستر عن ورود خدود
وارشقينا بلحظك الممدود
شنفي سمعنا بصوتك الحلو إنا
مغرمون بكل صوت نشود
فعذاب الوداد في القلب عذب
حين يهدى إلى الحسناء الودود

وكأنه كان يرى مع الإمام الشافعي أن الشعر يزري بالعلماء، وبذلك انطوت نفسه عن كنوز من الأدب الرفيع، كم كنا نتمنى لو أنه أطلق سراحها، لتحيا من بعده قطعا معبرة عن إحساسه...

*** جبران الكاتب :**

لم يهتم أستاذنا جبران بالكتابة كثيرا، بل كان مولعا كما تقدم بالخطابة وارتجال الكلمات في كثير من المناسبات، والكتابة والتأليف في حاجة إلى شيء آخر غير المؤهلات، وهو الخلود إلى الذات والانقطاع عن الناس بعيدا عن الضوضاء ومشاغل الحياة، والشيخ جبران لم يكن يجد راحته إلا في الحركة الذائبة وتجاذب أطراف الحديث مع مريديه الكثيرين في مراكش والبيضاء وفاس وغيرها من جهات المغرب.

ومن ثم فإن أهم آثار الشيخ (رحمه الله) هم تلامذته الكثر الذين من حقه عليهم أن يجمعوا ما دونوا من دروسه وخطبه وكلماته المختلفة، لتكون عربون وفاء من أبنائه الروحيين الذين عوضه الله بهم عن أبنائه من صلبه...

*** آثاره :**

لكن هذا لا ينفي وجود بعض الدروس والمقالات والأبحاث المنشورة له نذكر منها :

- **أولا :** الدروس التي شارك بها في الدروس الحسنية بين يدي جلالة المغفور له الحسن الثاني طيب الله ثراه، منها :

● «أوصاف عباد الرحمان» انطلاقا من قوله تعالى في سورة الفرقان : **﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾**.

● «ختم صحيح البخاري» ليلة القدر - يوم 26 رمضان 1408هـ.

● «فضل المنان في حلاوة الإيمان» انطلاقا من الحديث الشريف : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان» الحديث - يوم 08 رمضان 1409هـ.

● حقيقة صادق الإيمان في ميزان القرآن انطلاقا من قوله عز وجل في سورة الأنفال : ﴿إنما المومنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ الآيات. يوم 23 رمضان 1411.

● «اللسان عنوان عقل الإنسان» انطلاقا من قوله ﷺ : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هاجر ما نهى الله عنه» يوم 11 رمضان 1410هـ.

● «الإسلام دين الوحدة والتيسير لا دين الفرقة والتعسير» انطلاقا من قول البخاري في باب قول النبي ﷺ : «يسروا ولا تعسروا».

- ثانيا : الأبحاث التي شارك بها في بعض الندوات مثل :

● «قبس من تاريخ مالك رحمه الله».

شارك به في ندوة الإمام مالك بفاس سنة 1400هـ / 1980م.

● «رشفة من عذب بحر الطريقة التجانية».

ساهم به في ندوة الطرق الصوفية، دورة الطريقة التجانية بفاس عام 1406هـ 1985م.

● «الخطابة والخطيب - مكانة ووصفا -» شارك به في الملتقى العالمي الأول لخطباء الجمعة في المغرب - فاس 1407هـ/ 1987م.

● «كلمة بمناسبة الندوة التكريمية للشيخ الرحالي الفاروق، بكلية اللغة العربية بمراكش - 1412هـ / 1991م.

● كلمة باسم رؤساء المجالس العلمية بالمملكة المغربية، الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية - الدورة الثانية - الدار البيضاء 1412هـ/ 1991م.

ثالثاً - مقالاته :

أ - نشرت له بمجلة دعوة الحق بعض المقالات نذكر منها :

* عيد العرش أفراح ومسرات مجلة «دعو الحق» عدد 255. ص : 142 - 143.

* كلمة حول 20 غشت، مجلة «دعوة الحق» عدد 266 ص : 75 - 76.

* ذكرى عيد الشباب تأهب للعمل باستمرار مجلة «دعوة الحق» العدد 280 ص : 94 - 96.

* العلم قوام الحياة مجلة، «دعوة الحق» العدد 288 ص : 96 - 103.

ب - نشر له مقال بحوليات كلية اللغة العربية بمراكش.

* مقال تحت عنوان : «الإسلام دين التسامح والرفق واليسر والسلام» العدد الأول ص : 119 - 124.

*** وفاته :**

انتقل الأستاذ العلامة عبد السلام جبران إلى جوار ربه بمصحة الجنوب - بمراكش - عشية يوم الثلاثاء 24 ربيع الأول 1413هـ موافق 22 شتنبر 1992م تغمده الله بواسع رحمته وأسكنه فسيح جنانه.

ودفن يوم الخميس الموالي بعد صلاة العصر بمقبرة باب أغمات بمراكش بجوار الشيخ الرحالي الفاروق برد الله مضجعيهما وأحسن إليهما.

ورثاه الأستاذ مولاي الطيب المريني دنيا (ت : 1994م) رحمه الله بقصيدة طويلة منها :

عبد السلام وهل أرى لك بسمة
بين الصخور تلثمت بتراب

وأرى لك الدر النضيد بلاغة
يحكي جمالك في بيان لباب

وأرى لك الوجه البشوش بزينه
خلق كريم دائم الترحاب

ما للخطابة بعد فقدك عطلت
مذ أصبحت ثكلى لطول غياب

ما للمنابر قد جفت أعوادها
في حيرة من أمرها بذهاب

يهنيك أن صفاتك المثلى غدت
نبراس أجيال وهدي شباب(1)

مراكش - محمد عز الدين المعيار الإدريسي

1) ديوان مولاي الطيب المريني : 198 - 200 مراجعة وتقديم وتعليق : أحمد متفكر الطبعة 1/ 2000 المطبعة والوراقة الوطنية مراكش.